محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج:01، السداسي الثالث.

المحاضرة السابعة: قضية الموازنات النقدية:

عُرِفَت الموازنات الشعرية منذ العصر الجاهلي، على بساطة أحكامها، حيث كانت أحكاما ذوقية، وجزئية ، وغير معللة في أغلب الأحيان لكنها، كانت بمثابة موازنات مصغرة لما أصبحت عليه، فيما بعد، بعد عصر التدوين، وظهور المصنفات النقدية، خاصة ما يخص "الموازنة بين أبي تمام والآمدي". لأن الموازنة بين الشعراء هو عمل لا يختص به نقاد الأدب فحسب، لأنه يمثل مرحلة بدائية من مراحل الحكم التقويمي الجمالي بين الشعراء، وهو غالبا ما يتيح الذوق الفردي، كالمحاكمة التي أجراها النابغة بين الخنساء وحسان بن ثابت. وقد ظهرت الموازنة مبكرة في تاريخ الأدب العربي وبقيت تسايره على مر العصور إلى اليوم.

وحكومة "**أم جندب**" في العصر الجاهلي نموذج مصغر لها، حيث ذكر صاحب الموشح من أن امرأ القيس وعلقمة الفحل تحاكما إلى أم جندب الطائية زوج امرئ القيس أيهما أشعر؟ فأنشدها امرئ القيس، إلى أن قال في وصف فرسه:

فَلِلزَّجْرِ أُلْهُوبٌ ولِلسَّاقِ دِرَّةٌ ** وَلِلسَّوْطِ مِنْهُ وَقْعُ أَخْرَجَ مِهْذَبِ**

وأنشدها علقمة قصيدته، فلما انتهى علقمة من قصيدته أشادت به وفضلته على امرئ القيس وقال لها: بم فضلته عليَّ؟ فقالت: إنك ضربت فرسك بسوطك، وحركت ساقيك وزجرته، بينما قال علقمة:

فَأَدرَكهُنَّ ثَانِياً مِنْ عِنَانِهِ ** يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ المتَحَلِّبِ**

فلم يضرب فرسه ولم يُتعبه.

فكان الحكم ذوقيا، انطلق من الجزء، ولم يخرج عن ما هو متعارف عليه في البيئة العربية، من صفات الفرس الأصيل الذي يُقادُ من عنانه، ولا يُجزرُ ولا يُركل.

وبعد نضوج النظرية النقدية، خطا "**الآمدي**" خطوة جديدة فيها التجديد للنقد، والأخذ بيده إلى الأمام، وفي كتابة يبرز النقد الأصيل وتظهر صورته الحقة من حيث القدرة على إصدار الأحكام بالرجوع إلى النصوص وموازنتها وتحليلها، وإبراز سماتها وخصائصها بعيدا عن التعصب والمحاباة، وكل هذا يجعل من الآمدي ناقدا بارعا جليلا.

إن كتاب الموازنة من أمهات كتب النقد التي استقرت فيها أصول النقد العربي، اهتم فيه الآمدي بالجمع والتوثيق، حيث حدد الآمدي بدايتها بقوله:« نظرت في شعر أبي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، واخترت جيدها، وتلقطت محاسنها، ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الأوقات. فما من مرة إلا وأنا أُلحق في اختيار شعر البحتري ما لم أكن اخترته من قبل، وما علمت أني زدت في اختيار شعر أبي تمام ثلاثين بيتا على ما كنت اخترته قديما».

ففي مقدمة كتابه الموازنة نرى "الآمدي" أسهب في شرح القضية وأحاطها بالكثير من الأدلة التي لم نعهدها في كتب السابقين عليها، وهذه سمة الناقد الحق الذي لا يجاري السابقين، وإنما يوازن ويدقق، ويدعم آراءه بالحجج والبراهين التي تؤكد فهمه وقوة إدراكه لما يعرضه بتحديد واضح واستقصاء عميق: يقول:« ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي؟ لتباين الناس في العلم، واختلاف مذاهبهم في الشعر، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستشهد لذم أحد الفريقين، لأن الناس لم يتفقوا على أي الأربعة أشعر؟ ...

فإن كنت ممن يُفضلُ سهل الكلام وقريبه، ويُؤثِرُ صحة السَّبكِ، وحسن العبارة وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرونق، فالبحتري أشعر عندك ضرورة.

وإن كنت تميل إلى الصنعة، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على ما سوى ذلك، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة.

فأما أنا فلا أنصح بتفضيل أحدهما على الآخر، ولكني أقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اتفقا في الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى ومعنى، ثم أقول: أيهما أشعر في

تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى؟ ثم احكم أنت حينئذ إن شئت على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والرديء».

ومن الملاحظ أن "**الآمدي**" أظهر بوضوح عدم تحيُّزِهِ لأحد الشاعرين ضد الآخر بل جعلهما على المسرح أمام الناقد ووضع بجانبهما أعمالهما، ثم ترك الحكم النِّهائي للأعمال نفسها، فهي التي تترجم في صراحة وصدق ويقين عن الشاعرين بدون خفاء.

وظهرت عدالة الآمدي أيضا في أنه لم يقف مع أحد من الطائفتين اللتين نادت إحداهما بتفضيل البحتري، والأخرى بتفضيل أبي تمام، بل عمل جهده في إظهار الكثير من المقارنات التي تجعل الحكم سهلا . بعد هذا . على الفاهم المتذوق للشعر وخفاياه، أو على من يريد أن يفضل أحدهما على الآخر.

استطاع "**الآمدي**" أن يوضح منهجه بدقة ويرسم طريقه في وضوح فقال في كتابه: "وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم بمحاسنهما. وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام، وإحالاته، وغلطه، وساقط شعره، ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من معانيه، ثم أوازن بين شعريهما بين قصيدة وقصيدة، غذا اتفقا في الوزن والقافية وإعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى، فمحاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك وتتكشف، ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه، وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من تشبيه، وبابا للأمثال، أختم بهما الرسالة".

وقد أذكت الموازنات تلك، قضايا ذات أهمية في النقد، منها ظهور شعراء النقائض وظهور الشعراء المجددين، وبزوغ المعارك النقدية، مثل المعركة التي دارت حول إرجاع الجودة للفظ والمعنى، وبين أنصار الطبع والصنعة، أو بين أنصار عمود الشعر ومذهب البديع، وتُعد الموازنات الشكل التطبيقي للنقد الذي يهدف إلى التقويم والحكم على أعمال النقّاد، وما يُميِّزُ هذه القضية أن أكثر النقاد في التاريخ العربي قد وازنوا بين الشعراء، وهذا مما أدى بموازناتهم التي كانت تعتمد معايير ذوقية، لأن تذهب إلى التعليل.